شرح كتاب (الرد على الجهمية) لعثمان بن سعيد الدارمي-رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (٣٠)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قال أبو سعيد-رحمه الله تعالى:

[ولو جاز أن يُنسب كلام مخلوق إلى الله فيكون لله كلاماً وصفة، كما يضاف إليه بيت الله وعبد الله، لجاز أن تقول: كل ما يُتكلم به آناء الليل والنهار من حق أو باطل أو شعر أو غناء أو نوح كلام الله، فما فضل القرآن في هذا القياس على سائر كلام المخلوقين إن كان كله ينسب إلى الله، ويقام لله صفة وكلاما في دعواكم؟ فهذا ضلال بين].

نعم، هذا تنظير يتبين به الفرق، فإن الله تعالى خالق جميع الأشياء، فالنوح والنشيد والغناء وغير ذلك من الأصوات كلها خلق الله عز وجل، الله خالق كل شيء، فلو كان القرآن كما زعم هؤلاء المعتزلة أنه مخلوق لما كان بين القرآن وغيره من الأصوات -حتى الأصوات المنكرة- فرق، إذ الجميع خلق الله، لكن الله تعالى أضاف القرآن إلى نفسه إضافة الصفة إلى الموصوف، لا إضافة المخلوق إلى الخالق، ففرق بين هذا وهذا بيِّن. نعم.

[مع أنا قد كفينا مؤنة النظر بما في كتاب الله من البيان، وفي الأثر من البرهان، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ - حفظه الله -

قال أبو سعيد رحمه الله: احتججنا بهذه الحجج وما أشبهها على بعض هؤلاء الواقفة، وكان من أكبر احتجاجهم علينا في ذلك أن قالوا: إن ناساً من مشيخة رواة الحديث الذين عرفناهم عن قلة البصر بمذاهب الجهمية سئلوا عن القرآن، فقالوا: لا نقول فيه بأحد القولين، وأمسكوا عنه إذ لم يتوجهوا لمراد القوم؛ لأنها كانت أغلوطة وقعت في مسامعهم لم يعرفوا تأويلها، ولم يبتلوا بها قبل ذلك، فكفوا عن الجواب فيه وأمسكوا. فحين وقعت في مسامع غيرهم من أهل البصر بهم وبكلامهم ومرادهم ممن جالسوهم وناظروهم وسمعوا قبح كلامهم مثل من سمينا، مثل جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، وابن المبارك، وعيسى بن يونس، والقاسم الجزري، وبقية بن الوليد، والمعافى بن عمران، ونظرائهم من أهل البصر بكلام الجهمية، لم يشكوا أنها كلمة كفر، وأن القرآن نفس كلام الله كما قال الله تبارك وتعالى، وأنه غير مخلوق إذ رد الله على الوحيد قوله: إنه قول البشر وأصلاه عليه سقر].

((ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا))[المدثر:١١]، لهذا سماه الوحيد، ومن أعظم من يُحفظ عنه ذم الواقفة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وقد نقل ههنا في الحاشية قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله: الواقفة شر من الجهمية، ومن قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو كافر، وقال رحمه الله فيمن يقول: أنا أقف في القرآن تورعاً قال: ذاك شاكٌ في الدين، أجمع العلماء والأئمة المتقدمون على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، هذا الدين الذي أدركت عليه الشيوخ وأدرك من كان قبلهم على هذا. انتهى.

فالإمام أحمد رحمه الله المحفوظ عنه في ذم الواقفة كثير، ذم الواقفة، وهذا يدل على الوضوح، والعالم الراسخ هو الذي تسمع منه الكلام البين القطعي الذي ينم عن حسن اعتقاد وحسن تصور، كما قال سبحانه وتعالى: ((أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ))[هود:١٧]. أما من كان مدخولاً، في نفسه شبهات، فإن كلامه يأتي متذبذباً كهؤلاء الذين قال عنهم: إنهم ناس من مشيخة رواة الحديث، يبدو والله أعلم أنهم من أهل الرواية وليسوا من أهل الدراية، وأنهم ابتلوا بهذه المحنة ولم يحسنوا لها جواباً، فلأجل ذلك لما غشاهم هذا القول وأرتج عليهم قالوا: نمسك، وهذا ضعف فيهم، لا أنه مذهب أهل الحديث حاشا وكلا، فإن مذهب

أهل الحديث المسمَّين المعروفين بالرسوخ في الدين وحفظ السنة على خلاف ما قال هؤلاء الضعفاء في هذه المسألة من الإمساك. نعم.

وقول الإمام أحمد أنهم شر من الجهمية، وجه كونهم شر من الجهمية أنهم يُلبسون بهذا على العامة، تأملوا معي، الجهمية أمرهم بيِّن ومفتضح، ويقول قائلهم: القرآن مخلوق، فأمرهم يتضح للعامة، فيه شناعة وبجاحة، فلذلك ينفر منهم العامة، لكن هؤلاء الواقفة كأنما يتسترون ويتدرعون بالورع، حينما يقول قائلهم: لا نقول كذا ولا نقول كذا، فيبدو أحدهم وكأنه متورع، ومثل هؤلاء ينطلي أمرهم على العامة، فيظنون أن ذلك زيادة في الدين، وهو في الحقيقة نقص في الدين والشخصية والعلم، والعامي إذا التبست عليه الأمور يستحسن التوقف، ولا نقول بكذا ولا نقول بكذا ولا ننحاز بهذا ولا ننحاز لهذا، وهذا ليس صواباً، بل إن نبينا صلى الله عليه وسلم فارِق بين الحق والباطل، فلا يظن الإنسان أن في التأرجح وتسويغ جميع الأمور أن في هذا سلامة وعافية، لا.

كما أن كثيراً من الناس يظن أن مذهب المفوضة أهل التجهيل أنه مذهب سلامة، ألم تروا أنه قد قيل جملة بائرة باطلة، قال بعضهم: مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم، قائل هذه المقالة يصور للناس أن مذهب السلف هو الإيمان بألفاظ النصوص دون تحقيق معناها، وأن مذهب الخلف هو إثبات النصوص والبحث عن تأويلات لائقة، بأن يقول: استوى استولى، واليد النعمة والقدرة، والعين العلم وكذا وكذا، يأتي يظن أن هذا مذهب الخلف هو الذي حقق العلم والحكمة، وأن السلف أشبه ما يكونون بالدراويش، يؤمنون بالعمومات والألفاظ العامة ولا يحققون معناها، ويحسنون ذلك ويقولون: هذا لعمق إيمانهم وقلة تكلفهم هم يكتفون بقراءة القرآن والأحاديث، وفي هذا أعظم الجناية على السلف، لأن سلب وصف العلم والحكمة عنهم وصف لهم بضده، وكيف يمكن أن يحصل سلامة بلا علم ولا حكمة، السلامة ثمرة العلم والحكمة، ولا سلامة بدون علم ولا حكمة، فالسلف رحمهم الله لم يكونوا هكذا لا يعينون المراد ولا يحققون المعنى، بل هم أعظم الناس تحقيقاً للمعاني، وقلوبهم ممتلئة بإثبات ما أثبت الله لنفسه أو أثبته له

نبيه على المعنى اللائق به، فعلى الإنسان أن يتنبه لهؤلاء الذين يتظاهرون بالورع والتوقف في غير محل التوقف. لهذا قال الإمام أحمد: الواقفة شر من الجهمية. نعم.

[فصرحوا به على علم ومعرفة أنه غير مخلوق، والحجة بالعارف بالشيء لا بالغافل عنه، القليل البصر به].

صحيح.

[فتعلق هؤلاء فيه بإمساك أهل البصر، ولم يلتفتوا إلى قول من استنبطه وعرف أصله، فقلنا لهم: إن يك جبن هؤلاء الذين احتججتم بهم من قلة بصر، فقد اجترأ هؤلاء وصرحوا ببصر، وكانوا من أعلام الناس وأهل البصر بأصول الدين وفروعه، حتى أكفروا من قال: مخلوق، غير شاكين في كفرهم ولا مرتابين فيهم].

قال رحمه الله: [باب الاحتجاج في إكفار الجهمية.

قال أبو سعيد رحمه الله: ناظرني رجل ببغداد منافحاً عن هؤلاء الجهمية، فقال لي: بأية حجة تكفرون هؤلاء الجهمية، وقد نُهي عن إكفار أهل القبلة؟ بكتاب ناطق تكفرونهم أم بأثر أم بإجماع؟ فقلت: ما الجهمية عندنا من أهل القبلة، وما نكفرهم إلا بكتاب مسطور وأثر مأثور وكفر مشهور].

نعم، الجهمية، من السلف من عدهم من الثنتين والسبعين فرقة، ومنهم من أخرجهم منهم، فإن عبد الله بن المبارك ويوسف بن أسباط لما عدوا أصول الفرق لم يذكروا منهم الجهمية، وإنما ذكروا الخوارج والروافض والقدرية والمرجئة، هكذا قال يوسف بن أسباط وعبد الله بن المبارك، قالوا: أصول الفرق أربع، فقيل لابن المبارك: الجهمية، فقال: ليسوا من أهل القبلة، يعني ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة أصلاً، وذلك لشناعة مقالتهم، فكثير من السلف يخرجونهم من أهل القبلة ولا يعدونهم في الثنتين والسبعين فرقة لشناعة مقالتهم، كما أُخرجت الباطنية الزنادقة.

فأبو سعيد رحمه الله يحكي مناظرة جرت مع رجل ببغداد ينافح عن هؤلاء الجهمية، واعلموا يا رعاكم الله أن لفظ الجهمية أحياناً يُطلق على الجهمية الغلاة، الذين هم أتباع الجهم بن صفوان السمرقندي، الذين ينكرون

أسماء الله وصفاته، ويعتقدون الله تعالى الوجود المطلق بشرط الإطلاق، يعني الوجود المطلق بشرط الإطلاق يعني يعتقدون إثبات الله دون أن يكون له اسم أو صفة، يعني بشرط الإطلاق يعني غير متقيد بوصف، وهذا في الحقيقة لا وجود له في الأعيان، لا وجود له إلا في ... فكرة، مجرد فكرة ذهنية، لأنه لا يمكن أن يكون ثم شيء موجود إلا وهو متصف بصفة، لو لم يكن إلا صفة الوجود، فأحياناً يعني يُطلق لفظ الجهمية والتجهم ويراد به الغلاة، وأحياناً يطلق التجهم ويُدخل فيه المعتزلة، الذين أثبتوا الأسماء وأنكروا الصفات، أو ربما أثبتوا صفة العلم والحياة على اختلافات في مقالاتهم.

وأحياناً –وأرجوا أن تنتبهوا لهذا– يطلق التجهم حتى على بعض الصفاتية الذين أنكروا بعض الصفات أو أولوها، كمثلاً الأشاعرة، والماتريدية والسالمية وأتباع الحارث بن أسد المحاسبي، وأتباع ابن عباس القلانسي، ممن يقال لهم صفاتية، وهؤلاء الصفاتية الأصل فيهم الإثبات، ولكن أشكلت عليهم بعض الصفات، وهي الصفات الخبرية والفعلية فأولوها ولم يثبتوها، فأحياناً يطلق حتى على هؤلاء جهمية، بالمعنى العام للتجهم بمشاركتهم الجهمية في إنكار بعض الصفات، لكن الجهمية الذين ... الأمة على تكفيرهم هم الغلاة أتباع الجهم بن صفوان السمرقندي الذي قال بإنكار الأسماء والصفات.

وأما المعتزلة ففي تكفير السلف لهم روايتان، وكأن الدارمي رحمه الله يميل إلى تكفير المعتزلة. نعم. هاه؟ لا، الغلاة لا شك في إجماع السلف على تكفيرهم، كما قال ابن القيم:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان

فالسلف مجمعون على تكفير الجهمية الغلاة، لكن المعتزلة للسلف في تكفيرهم روايتان. نعم.

[أما الكتاب فما أخبر الله عز وجل عن مشركي قريش من تكذيبهم بالقرآن، فكان من أشد ما أخبر عنهم من التكذيب أنهم قالوا: هو مخلوق، كما قالت الجهمية سواء، قال الوحيد، وهو الوليد بن المغيرة المخزومي: ((إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ))[المدثر:٢٥]، وهذا قول جهم: إن هذا إلا مخلوق، وكذلك قول من يقول بقوله، وقول من قال: ((إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ))[الفرقان:٤]، و ((إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ

))[النمل:٦٨]، و ((إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ))[ص:٧]، معناهم في جميع ذلك ومعنى جهم في قوله يرجعان إلى أنه مخلوق ليس بينهما فيه من البون كغرز إبرة ولا كقيس شعرة، فبهذا نكفرهم كما أكفر الله به أئمتهم من قريش، فقال: ((سَأُصْلِيهِ سَقَرَ))[المدثر:٢٦].

إذ قال: ((إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ))[المدثر:٢٥]، لأن كل إفك وتقول وسحر واختلاق وقول البشر، كله لا شك في شيء منه أنه مخلوق، فاتفق من الكفر بين الوليد بن المغيرة وجهم بن صفوان الكلمة، والمراد في القرآن أنه مخلوق، فهذا الكتاب الناطق في إكفارهم].

طيب، إذاً هذا هو دليل الكتاب حسب ما قرره المصنف رحمه الله، وهو التنظير على مقالة الوليد بن المغيرة حين وصف القرآن بقوله: قول البشر، فوصفه بأنه مخلوق مطابق لوصف الوليد بن المغيرة بذلك. طيب. وأما الأثر.

[وأما الأثر فيه فما حدثنا سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، وجرير بن حازم، عن أيوب، عن عكرمة، أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أُتي بقوم من الزنادقة فحرقهم، فبلغ ذلك ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: أما أنا فلو كنت لقتلتهم، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: { من بدل دينه فاقتلوه }، ولما حرقتهم لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم: { لا تعذبوا بعذاب الله }، زاد سليمان في حديث جرير: فبلغ عليا ما قال ابن عباس رضي الله عنهم، فقال: ويح ابن أم الفضل، إنه لغواص على الهنات].

نعم، وفي بعض الروايات: ما أسقط ابن أم الفضل على الهنات. نعم.

[– قال أبو سعيد: فرأينا هؤلاء الجهمية أفحش زندقة، وأظهر كفراً، وأقبح تأويلاً لكتاب الله، ورد صفاته فيما بلغنا عن هؤلاء الزنادقة الذين قتلهم علي عليه السلام وحرقهم بالنار].

هم السبئية الذين ظهروا في زمن علي رضي الله عنه، وإمامهم عبد الله بن سبأ اليهودي، وكان من يهود صنعاء، وتظاهر بالإسلام، وسعى في أهل الإسلام بالوقيعة، حتى هيج العامة على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، واجتمع منهم من اجتمع في الموسم، حتى جفلوا إلى المدينة، وجرى ما جرى من قتل

الخليفة الراشد عثمان بن عفان، ولم يزل هذا الخبيث ... في الذروة والغارب حتى بث في أتباعه القول بالرجعة، ويعني أن علياً يرجع في آخر الزمان.

وكذلك القول بالوصية، وأن النبي صلى الله عليه وسلم اتخذ وصياً من بعده وهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأيضاً القول بألوهيته، فإن أتباعه كانوا يقولون بهذه المقالة الكفرية، وهو تأليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فلما بلغ علياً مقالتهم خَدَّ لهم الأخاديد في باب كندة من أبواب الكوفة، واستتابهم فأبوا، قال: فأراد أن يحرقهم بالنار قالوا: والله ما ازددنا فيك إلا يقيناً، فإنه لا يحرق بالنار إلا الله، فأضرم النار وألقاهم فيها، وقال بيته المشهور:

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناري ودعوت قنبرى

قنبرى غلامه، فلأجل ذا قال ابن عباس ما قال، إنه لا يعذب بعذاب الله إلا الله، وقال: لو كنت مكانه لقتلتهم { من بدل دينه فاقتلوه }، لكن علياً رضي الله عنه حمله على ذلك هذه المقالة العظيمة، قالوا له: أنت أنت، يعني أنت الله، كفاحاً، فلأجل ذا حرقهم.

طيب. هؤلاء هم الزنادقة، ويرى أبو سعيد رحمه الله أن مقالة هؤلاء الجهمية أفحش زندقة وأظهر كفراً وأقبح تأويلاً لكتاب الله ورد صفاته، حيث أنهم جعلوا شيئاً من صفات الله تعالى مخلوقاً، فهذه في رأي أبي سعيد مقالة فاجرة بائرة أشد كفراً من مقالة أولئك السبئية. نعم.

[فمضت السنة من علي وابن عباس رضي الله عنهما في قتل الزنادقة، لما أنها كفر عندهما، وأنهم عندهما ممن بدل دين الله، وتأولا في ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، { ولا يجب على رجل قتل في قول يقوله حتى يكون قوله ذلك كفراً }، لا يجب فيما دون الكفر قتل إلا عقوبة فقط، فذاك الكتاب في إكفارهم وهذا الأثر، ونكفرهم أيضاً بكفر مشهور، وهو تكذيبهم بنص الكتاب، أخبر الله تبارك وتعالى أن القرآن كلامه، وادعت الجهمية أنه خلقه، وأخبر الله تبارك وتعالى أنه كلم موسى تكليماً، وقال هؤلاء: لم يكلمه الله بنفسه، ولم يسمع موسى نفس كلام الله، إنما سمع كلاماً خرج إليه من مخلوق، ففي دعواهم دعا مخلوق

موسى إلى ربوبيته، فقال: إني أنا ربك فاخلع نعليك، فقال له موسى في دعواهم: صدقت، ثم أتى فرعون يدعوه أن يجيب إلى ربوبية مخلوق كما أجاب موسى في دعواهم].

يعني كله هذا من لازم مقالتهم. نعم.

[فما فرق بين موسى وفرعون في مذهبهم في الكفر إذاً؟، فأي كفر بأوضح من هذا؟ وقال الله تبارك وتعالى: ((إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))[النحل:٤٠]، وقال هؤلاء: ما قال لشيء قط قولاً وكلاماً: كن فكان، ولا يقوله أبداً، ولم يخرج منه كلام قط، ولا يخرج، ولا هو يقدر على الكلام في دعواهم، فالصنم في دعواهم والرحمن بمنزلة واحدة في الكلام، فأي كفر بأوضح من هذا؟

وقال الله تبارك وتعالى: ((بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ))[المائدة:٦٤]، و ((مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ))[ص:٧٥]، و ((بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[آل عمران:٢٦]، وقال: ((يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ))[الفتح:١٠]].

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ